متى ٢، ١-١٢

١ عيد ميلاد إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح

مهد المسيح أم لحده؟

يبتدئ الكتاب المقدس، في العهد القديم في سفر التكوين بعبارة: "في البدء خلق الله..."، والكتاب كلّه قصة لحدث واحد. وهذا الحدث هو الصراع القائم بين رغبة الله أن يكون إلى جانب الإنسان في حياته وبين رفض الإنسان أن يقبل دخول الله هذا إلى خطواته ومرافقته لها. بين هذه الرغبة الإلهيّة وهذا التردّد البشريّ لقبولها يمتدّ تاريخ الكتاب كلُّه.

أما عظمة سرّ التدبير الإلهيّ، الذي تمّ في العهد القديم عبر الأنبياء والشرائع والمرسَلين، فتكمن في أن الله الخالق لم يغْصِب للإنسان حريته أبداً، لكنّه بطول أناته ومحبته واستمرار تضحياته، أي كما يسميه بتأديبه وتربيته، استطاع أن يساعد الإنسان ليصرخ بحرّية مطلقة، على لسان يوحنا الحبيب صرخة النصر الأخيرة في آخر كلمات الكتاب المقدس الذي ينتهي بـ: "تعال أيّها الربّ يسوع، تعال" (الرؤيا ٢٢، ٢٠).

بين أول عبارة للكتاب المقدّس وآخر عبارة فيه يدخل تجسّد يسوع المسيح كالحدث المفصل والأكبر في حياة كلّ البشريّة. وعلى امتداد كلّ هذا التاريخ يشكّل التجسّد الإلهيّ الحدث النهائيّ والأقدس، الذي قبلت فيه البشريّة أن يدخل الله ويشاركها حياها في الجسد كما هو جسدنا. فلما تمّ ملء الزمان أرسل الله ابنه آخذاً صورة عبدٍ في الجسد ليفتدي الذين في الجسد. إنّه الحدث القمّة الذي التقت وتوافقت فيه الرغبة الإلهيّة مع الحريّة البشريّة.

لكن هذا الحدث، "ميلاد المسيح" في تلك اللحظة من التاريخ، لم يكن نهاية التاريخ، وإنّما ذروته. من هذه النقطة يبدأ الله- يسوع المسيح- يدخل مع الناس في حياهم بشكل سريع، وكثيرون أصبحوا الذين يقبلونه ويشاركونه حياته. أما الصراع بين طرد الله وبين استقباله، وإن صار بعد التجسد أسهل، فما زال قائماً.

"الله خارج حياتنا والله في ملء حياتنا"، هذا هو الصراع اليومي لكلّ منّا. خطيئة الجـدَّين- آدم وحواء- لم تكن حدثاً معيناً وحسب؛ إنّما كانت خطأً في الموقف. وكانت الخطيئةُ أن الإنسان رغب ما هو عكس الرغبة الإلهيّة. إن الحريّة البشريّة اختارت عزل الله من الحياة بدل استمدادها للحياة منه. الخطيئة ليست الفعل المعين وحسب، الخطيئة هي المنحى الخاطئ الذي ننهجه، كالابتعاد عن الله بـدل الاقتراب منه.

الخطيئة في الكتاب المقدس لا تعني أبداً إهانة الله أو تعدٍّ على شريعته، بالمعنى الحـرفي للكلمـة؛ الخطيئة هي الاتجاه الخاطئ للإنسان. هي الخطوات الخاطئة من منحى الارتواء من حياة الله نحو "عدم" وعطش العيش دون الله. فردوس الحياة-الجنّة لم يكن مكاناً ما ملآنٌ بالأشجار! وعدن ليست بقعـة! الفردوس وعدن هما أي مكان يوجد الله في وسطه، ويتمّ فيه ما يرويه الكتاب المقـدّس، أن الله كـان يتمشّى وسط الفردوس. الفردوس هو كلّ ما يتوسّطه الله أينما كان المكان ومتى كان الزمان. لهذا يربط الكتاب المقدّس بين الخطيئة وبين الموت لأن الخطيئة هي أيّة محاولة في أيّة لحظة للانعزال عن الله وهـي بالتالي موت. والفضيلة هي سعيٌ يبتغي أن يتوسّط الله تصرّفاتنا، وبالتالي هي حياة.

يذكر يوحنا الحبيب على لسان الربّ يسوع أنّه أتى إلى وسط تاريخنا لكي "تصير لنـا الحيـاة أوفر". نعم ميلاد المسيح يعني بالتمام مسألةَ حياةٍ أو موت. ميلاده، ليس في تلك اللحظة منذ ألْفَي عام في التاريخ ولكن كلّ لحظة في تاريخ حياتنا، هذا الميلاد هو حياتنا، وغيابه هو مماتنا.

ألم تكن خطيئة الابن الضال أنّه غادر البيت الأبوي، وأنّه اختار أن يعيش حيث لا يتواجد أبوه؟ و ألم تكن حياته في أحضان أبيه الذي استقبله وقبله بعد انتظار؟ الغربة عن الله موت، والقربى مـع الله هي الحياة. لهذا يُقارَن يسوع بآدم الأوّل ويسمى آدم الثاني. لأن آدم الأوّل مال إلى إبعاد الله عن حياة الإنسان، وآدم الثاني- المسيح أدخل الله إلى حياة الإنسان، حتّى بالجسد.

المسيح وُلد في التاريخ، لكنّه قد يولد أو يموت في كلّ لحظة في حياة أي إنسان. لهذا تأتي الأعياد لتجدّد ولادته وليس لتحيي ذكرى ولادته وحسب. ميلاد هذا العام يجب أن يكون مهداً للمسيح وليس لحداً له في حياتنا. "المسيح أتى من السماوات فاستقبلوه، المسيح على الأرض فارتفعوا". وكما صـرخ أحد القدّيسين متعجباً: "إني أرى الإله على الأرض والإنسان في السماء"!

حياتنا هي مهد المسيح حين يتوسطها، وحياتنا هي لحده إن رَحَلَها. استعدي يا بيت لحم، ففي ميلاد المسيح فُتحتْ عدنُ (الفردوس) للجميع، لأن عود الحياة قد أزهر في المغارة من البتول. البتول التي ظهر بطنها الفردوسَ الحقيقيّ. لأن فيه الربّ الغرس الإلهيّ، الذي إذ نأكل منه نحيا ولا نموت مثل آدم. المسيح يولد دائماً ليُنهض الإنسان الذي يسقط كلّ حين.

آميـــــن